الفصل الثالث
نبى الله يونس فى القرآن والتوراة

● يوقن كل مؤمن بالله تعالى ورسله الكرام عليهم صلاة الله وسلامه أن حياته العابرة فى هذه الدار الدنيا سلسلة من الاختبارات والابتلاءات المتتابعة، وتلك الابتلاءات تكون بالشر وبالخير كذلك، منعًا وعطاء، ليحيا المؤمن حياته بين الشكر والصبر، فإنْ أعطاه الله شكر وإنْ سلبه صبر، فلم يزل يتقلب فى حالتى الشكر والصبر حتى يلقى وجه ربه الكريم بنفس مطمئنة خليقة بخطاب بارئها فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] ويقول تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وفى الحديث الشريف يصافح وجوهنا أنوار هذا القول النبوى الشريف: «عَجَبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» (رواه الإمام الترمذى فى سننه).

- بل إن الله تعالى استخلف الإنسان فى الأرض للاختبار؛ ولذا جعل الدنيا دار عمل بلا حساب، يخوض فيها الإنسان غمار بحارها اللجيّة، فإن أحسن فلنفسه وإن أساء فعليها، يقول تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ [الإنسان ١، ٢] ويقول تعالى: ﴿ **... وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

● ولأن الدنيا دار ابتلاء واختبار كانت الحياة فيها متغيرة لا ثبات لها، يقول تعالى: ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ ولذا فهى محفوفة بالمكاره والأكدار، لا تدوم فيها سعادة ولا شقاوة، ولا

يبقى فيها غنى دائم أو فقر مقيم، وكل حال فيها إلى روال، وفى هذ يقول الشاعر الأندلسى أبو البقاء الرندى فى وصفه الدنيا في نونيته في رثاء الأندلس:

لكل شئ إذا مـا تمَّ نقـصـانْ ... فـلا يَغـرّ بطيب العـيش إنسـانُ
هى الأمور كـمـا شاهدتها دولٌ ... من سـرَّه زمن سـاءته أزمـانُ
وهذه الدار لا تُبـقى على أحـدٍ ... ولا يدومُ على حـال لهـا شـانُ
أينَ الملوكُ ذو والتـيـجان من يمنٍ ... وأين منهم أكـاليلٌ وتيـجـانُ
وأين مـا شـاده شـدَّاد فى إرمٍ ... وأين ما ساسه فى الفرس ساسانْ
وأين مـا حـازه قـارون من ذهبٍ ... وأين عـادٌ وشـداد وقـحطانْ
أتى على الكل أمـر لا مـرد لَهُ ... حتى قَضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنانْ

– ولذا يُوطّنُ المؤمن نفسه بالتربية الإيمانية على استقبال اختبارات الحياة الدنيا بالرضا والقُبول ، لأنه يفهم عن الله تعالى، ويعلم يقينا أن ما ينزل به من البلاء والمصائب فى الدنيا يكفر عنه ذنوبه ويرفع درجاته عند الله ويقربه من ربه، وذلك عندما يستقبل المؤمن الابتلاء ونزول القضاء بالرضا والتسليم والصبر فيظفر بثواب وجزاء الصابرين وينزل عليه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّما يُوفَّى الصَّابِرُون أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر: ١٠] برداً وسلاماً، مستبشرا بما أخبر به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من عظيم الجزاء ووافر الثواب للمبتلين الصابرين من مثل قوله: « يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض » (أخرجه الترمذى) وقوله ﷺ: « إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها، ابتلاه الله تعالى فى جسده أو فى ماله أو فى ولده حتى يبلغه المنزلة التى سبقت له من الله عزّ وجل » (رواه أبو داود).

– أما الكافر والمشرك وأهل الحياة المادية كما هو الحال فى كثير من أهل البلاد الأوربية والأمريكية وأتباعهم فى الديار الإسلامية إذا نزل البلاء بأحدهم

ضاقت به الدنيا واسودت الحياة فى عينيه، وكثيرا ما ينتهي أمره بانتحاره؛ لأنه حرم لذة الإيمان وبرد اليقين والقناعة العقلية والقلبيه بالحكمة الإيمانية فى الابتلاء، مما يجعل الدنيا أكبرهم همّه ومبلغ علمه ومجال تنعُّمه، وهو لا ينتظر ثوابا أو جزاء فى الدار الآخرة، لأنه لا يؤمن بها ومن ثمّ لا يصدّق بثوابها ونعيمها فإن فاته شئ من نعيم الدنيا وجنتها فقد فاته الخير كله، وفى هذا يقول السفير الدكتور فتحى مرعى فى إحدى مقالاته التأملية المربية بصحيفة (الأهرام) القاهرية: «أما الفاجر فتجده ساخطًا ناقمًا كلما أصابه مكروه، فليس لديه ما يدفع عنه السخط أو النقمة فهو لا يرجو لقاء الله ... كما أنه إذا حلّت به نعمة زادَ فجوره وطغيانه ومشى بين الناس مختالاً فخوراً، متغطرساً متعجرفًا ... فى حين أن المؤمن إذا أصابته نعمة حمد الله وأثنى عليه وازداد تواضعًا، وجعل للمحتاجين من الناس نصيبا مما آتاه الله من فضله» (الأهرام – السبت ٢/١/١٩٩٩م).

● وفى هذا السياق أتت الدراسة القيمة المسماة (يونس فى القرآن والتوراة) لأستاذنا الداعية الدكتور محمد أحمد طه علي أستاذ التفسير بجامعة الأزهر، وهى أطروحة علمية فى كتاب جليل عرض فيها شيخنا الباحث لنبى الله يونس فى تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

– وقد عرّف كاتبنا الباحث فى التمهيد بالعصر الذى عاش فيه يونس عليه السلام، وفى الباب الأول عرض لنسب النبى يونس وحياته ورسالته، وحكى فى الباب الثانى عما ورد عن يونس فى القرآن والتوراة، أما البابُ الثالث فكان للباحث الداعية تعقيبات قيّمة فى المفارقات اللفظية فى قصة يونس وتأديب الله تعالى نبيه يونس وما نزل به من بلاء التقام الحوت إيّاه مستقرا فى جوفه ومغاضبته والدروس المستفادة من قصة يونس فى مجال الأحكام الفقهية والدروس التربوية الإيمانية ثم بيان فضل نبى الله يونس عليه السلام وسبحان الله: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ١، ٢]